



عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل

زوجة الشهداء وشاعرة الم



د. سعد بوفلاقة - الجزائر

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق
وما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة
لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل ورأي ومنطق
وخلق مصون في حياء ومصدق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلاً

ولا مثلاً في غير شيء تطلق^(١)
حينئذ أدرك أبو بكر ما يجيش في نفس ولده،
وما يتأجج في فؤاده، فرق له، وأشفق عليه، وأمره
بمراجعتها، فقال عبد الله: أشهدك أنني قد راجعتها،
ومن شدة فرحه أعتق غلامه أيمن، قائلاً له: أنت حر
لوجه الله^(٢)، يا أيمن أشهدك أنني راجعت عاتكة، ثم
خرج يجري إليها، وهو يقول:

أعاتك قد طلقت في غير رية
وروجعت للأمر الذي هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح
على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبي للتفرق طائراً

وقلبي لما قد قرب الله ساكن

هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أخت سعيد بن
زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شاعرة من شواعر العرب
في صدر الإسلام. كانت على جانب كبير من الجمال وحسن
الخلق، ساحرة جذابة، تأخذ بمجامع القلوب، وتسلب الحليم
عقله، فتدعه هائماً، كما كانت ذات خلق حسن، ورجاحة
عقل، وجزالة رأي، وفصاحة لسان، وبلاغة وبيان، تزوجها
عبد الله بن أبي بكر الصديق، فأخذ بها، وشغلته عن مغازيه
ومعاشه وتجارته، فمر عليه والده (أبو بكر) [في داره، في
أحد أيام الجمع ليمضيا معا إلى الصلاة، فسمعه من أسفل
الدار، وهو في العلية، يناجي عاتكة، ويحدثها حديثاً لطيفاً
معسولاً، فتركهما ومضى، صلى ثم رجع، فوجده لا يزال
يناجيها، فقال له: يا عبد الله، أجمعت؟ قال: أو صلى الناس؟
قال: نعم، ثم قال له والده (أبو بكر): قد شغلتك عاتكة
عن المعاش والتجارة، وقد ألهتك عن فرائض الله، طلقها،
فطلقها^(٣)، وذات ليلة بينما كان أبو بكر يصلي على سطح
داره، إذ سمع عبد الله يقول:

راثي العظام في صدر الإسلام

ليهنك أني لا أرى فيك سخطه

وأنك قد تمت عليك المحاسن

فإنك ممن زين الله وجهه

وليس لوجه زانه الله شائن^(١)

ثم وهبها حديقة له، واشترط عليها ألا تتزوج أحدا بعده، فلما قتل بالسهم الذي أصابه بالطائف، جزعت عاتكة جزعا شديدا، وتأثرت كثيرا لموته، وبكته بكاء مرا، فقالت:

رزئت بخير الناس بعد نبيهم

وبعد أبي بكر وما كان قصيرا

فله عينا من رأى مثله فتى

أكر وأحمى في الهياج وأصبرا

إذا شرعت فيه الأسنة خاضها

إلى الموت حتى يترك الرمح أحمر

فأقسمت لا تنفك عيني سخيته

عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

مدى الدهر ما غنت حمامة أيكه

وما طرد الليل الصباح المنور^(٢)

ثم خطبها عمر بن الخطاب^(٣)، إلا أن الشرط الذي اشترطه عليها عبد الله بن أبي بكر، حين راجعها ووهبها الحديقة في أن لا تتزوج أحدا بعده، قد كان عائقا، فقال لها عمر: استفتي: فاستفتت علي بن أبي طالب، فقال: ردي الحديقة على أهله وتزوجي، ففعلت، ثم تزوجت عمر سنة اثنتي عشرة من الهجرة، فأولم عمر، ودعا أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علي ابن أبي طالب، فقال علي لعمر: دعني أكلّم عاتكة، إن لي حاجة أريد أن أذكرها إياها، فقل لها أن تستتر، فقال لها: استتري يا عاتكة، فإن عليا يريد أن يكلمك، فاستترت، فقال لها: ألسنت القائلة؟

فأقسمت لا تنفك عيني سخيته

عليك، ولا ينفك جلدي أغبرا

يذكرها برثائها لعبد الله، ويعيرها بنقضها للعهد،

فخجلت، فأطرقت، فبكت، فقال عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن، كل النساء يفعلن هذا، فقال علي: حاجة في نفسي قضيتها.

ولما قتل عمر بن الخطاب، قالت تبكيه:

وفجّني فيروز^(٧) لأدر درّه

بأبيض تال للكتاب منيب

رؤوف على الأدنى، غليظ على العدا

أخي ثقة في النائبات مجيب

متى ما يقل لا يكذب القول فعلة

سريع إلى الخيرات غير قطوب^(٨)

وقالت فيه أيضا:

عين جودي بعبرة ونحيب

لا تملي على الإمام النجيب

فجّعتني المنون بالفارس المع

لم يوم الهياج والتليب

عصمة الله والمعين على الدهر

عروغيت الملهوف والمكروب

قل لأهل الضراء والبؤس موتوا

قد سقته المنون كأس شعوب^(٩)

فبعد أن ذكرت فيروز قاتل زوجها في المقطوعة الأولى، الذي فجّعها بأمر المؤمنين، الرؤوف على الأهل، الغليظ على العدا، الصادق القول، السريع إلى الخير، تنادي في المقطوعة الثانية عينا، وتطلب منها ألا تمل من البكاء والنحيب على الإمام الأمين الذي انتزع الموت فجأة وقد كان يدافع عن الملهوف والمكروب والمحروم، ويحمي الناس من نائبات الدهر، فبعد له لن يكون للفقراء والبؤساء نصير،



وقد ظلت الشاعرة تذرف الدموع، وتتفجع، وتأرق
الليالي، فلا تعرف النوم سبيلا إلى عينيها حزنا
وهما على فقدانها أمير المؤمنين إذ تقول:

منع الرقاد فعاد عيني عيد
مما تضمن قلبي المعمود
باليلة حبست علي نجومها
فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرني حذارك مرة
فالיום حق لعيني الشهيد
أبكي أمير المؤمنين ودونه
للزائرين صفائح وصعيد^(١٠)

وفي إحدى تلك الليالي حلمت حلما مخيفا، إذ
تمثلت لها صورة أمير المؤمنين عمر، مسجى في
أكفانه، فعاودها حزنها وأرقها، فقالت:

من لنفسي عاودها أحزانها
ولعين شفها طول السهد
جسد لثف في أكفانه
رحمة الله على ذاك الجسد
فيه تفجيع لمولى غارم
لم يدعه الله يمشي بسبد^(١١)

ولما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام، فتزوجها
وكان غيورا عليها، فقال لها يوما لا تخرجي إلى المسجد..
فقالت: يا ابن العوام، أتريد أن أدع لغيرتك مصلى صليت
فيه مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر؟ فقال: لا أمنعك،
فلما سمع النداء لصلاة الصبح، توضأ، وخرج، فكمن
لها في سقيفة بني ساعدة، فلما مرت، ضرب بيده على
جسدها، واختفى، فقالت: مالك؟ قطع الله يدك! ورجعت
إلى بيتها، فلما عاد الزبير من المسجد، قال لها: مالي لم
أرك في مصلاك؟ قالت: يرحمك الله أبا عبد الله! فسد
الناس بعدك، الصلاة اليوم في القيطون^(١٢) أفضل منها
في البيت، وفي البيت أفضل منها في الحجرة^(١٣)، ولم
تعد تخرج بعد ذلك اليوم إلى الصلاة في المسجد، ولما
قتل الزبير عنها، رثته، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة

يوم اللقاء وكان غير معرّد^(١٤)

يا عمرو ! لو نبهته لوجدته

لا طائشا رعى الجنان، ولا اليد
كم غمرة قد خاضها لم يشه
عنها طرادك يابن فقح القرد^(١٥)
تكلتك أمك إن ظفرت بمثله
ممن مضى.. ممن يروح ويفتدي
والله ربك إن قتلت مسلما

حلت عليك عقوبة المتعمد^(١٦)
وقد ذكرت الشاعرة في هذه الأبيات عمرو بن
جرموز الذي غدر بالزبير، حيث قتله غيلة، ومن ثم
تستنزل العقوبة على القاتل، وتصف المقتول بالفارس
الشهم، الجسور.

ولما أرسل عبد الله بن الزبير إليها يصالحها في
إرثها من والده، صالحتة، وقالت له: «ما كنت لتبعث إلي
بشيء إلا قبلته، فبعث إليهما بثمانين ألف درهم، فقبلتها،
وصالحت عليها»^(١٧).

ثم خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد انقضاء عدتها
من الزبير، فأرسلت إليه، إني لأضن بك يا ابن عم رسول
الله ﷺ عن القتل^(١٨) فأخذ برأيها، ولم يتزوجها، ثم كان
يردد بعد ذلك: «من أحب الشهادة الحاضرة فليتزوج
بعاتكة»^(١٩).

من شعر عاتكة، أنها طرقت فنا واحدا من فنون الشعر المعروفة، ألا وهو فن الرثاء، وهو الغرض الذي يناسب حياتها الحزينة، إذ كلما تزوجت صحابيا كانت نهايته الشهادة، لذا عبرت من خلال مرآتها عما يختلج في نفسها من أحاسيس الحزن والألم، ورثاؤها في مجمله يميل إلى التأبين والعزاء، وتشيع فيه المعاني الدينية وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، كما نلاحظ في رثائها جزالة الألفاظ ووضوح المعاني، وصدق العاطفة، لأن شعرها صادر من قلب مقروح، وعاطفة مكلومة، ونفس حزينة، فالشاعرة أصيبت في أزواجها، فترجمت، بقلب مفجوع، حالتها، وتركت نفسها الشاعرة على سجيتها، دون مبالاة بالتميم والزخرفة إلا ما جاء عفو الخاطر ■

ثم تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب، فكانت أول من رفع خده من التراب يوم قتل، ولعنت قاتله، وقالت ترثيه:

وحسينا! فلا نسيت حسينا

أقصده أسنة الأعداء

غادره بكر بلا صريعا

جاده المزن في ذرا كربلاء^(٣٠)

ثم تأيمت بعده، وتوفيت نحو سنة أربعين للهجرة حسب رواية الزركلي^(٣١)، ولكن يبدو أنه وهم لأن المصادر الأخرى^(٣٢)، ذكرت بأن عاتكة رثت زوجها الحسين الذي استشهد في كربلاء سنة ٦١هـ. وبذلك تكون وفاتها في هذه السنة أو بعدها.

يبدو من خلال المقطعات الشعرية التي وصلتنا

الهوامش :

- (١) الأصفهاني: الأغاني مج ١٨ ص: ٨، واطر أيضا: ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص: ٢٤٦، وابن سعد: الطبقات مج ٨، ص: ٢٦٥ وما بعدها.
- (٢) الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٩٠ وانظر أيضا: ابن حجر: المصدر السابق ج ٤، ص: ٢٤٦. و ذر شارق: طلعت الشمس وأشرق.
- (٣) الأغاني: مج ١٨، ص ٩. والإصابة ج ٤، ص ٣٥٥.
- (٤) الأغاني: مج ١٨، ص ٩.
- (٥) الأصفهاني: المصدر نفسه، والصفحة نفسها، وابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ٤، ص ١٤٤ أو أبو تمام: الحماسة، مج ٢، ص ٧٠. والقرطبي: الاستيعاب، ج ٤، ص ٣٥٥. (مع الاختلاف في ترتيب الأبيات وعددها).
- (٦) الأغاني نفسه: ويذكر القرطبي أن الذي تزوجها بعد عبد الله هو: زيد بن الخطاب ثم قتل عنها يوم اليمامة شهيدا (الاستيعاب، ج ٤، ص ٣٥٥).
- (٧) فيروز: هو أبو لؤلؤة المجوسي قاتل
- عمر بن الخطاب رضي الله عنه المصدر نفسه، والصفحة نفسها).
- (٨) الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج ١، ص ٢٧-٧٤ و ٧٥، وعمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج ٣، ص ٢٠٣.
- (٩) الأغاني: مج ١٨، ص ١٠، والحصري القيرواني: المصدر نفسه، ص ٢٦-٢٧، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٧، والقرطبي: المصدر نفسه ص ٣٦٦ (مع الاختلاف في بعض المترادفات).
- (١٠) الأصبهاني: المصدر السابق، مج ١٨، ص ١٠-١١.
- (١١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة/ مج ٢، ص ١١٠٦-١١٠٧. والسيد: القليل من الشعر، يقال: ما له سيد ولا ليد. أي لا شعر ولا صوف. يقال: لن لا شيء له، وقولها: لم يدعه الله يمشي بسيد: تريد أقره الله، فلم يبق له شيء.
- (١٢) القيطون: المخدع.
- (١٣) الأصبهاني: الأغاني مج ١٨، ص ١١.
- (١٤) البهمة: الشجاع.. والمرد: الذي يهرب ويفر من الحرب.
- (١٥) الفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة، والقردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض.
- (١٦) القرطبي: الاستيعاب، ج ٤، ص ٣٥٦. وانظر الوشاء: المصدر السابق، ص ١٢١.
- (١٧) القرطبي: المصدر نفسه، ص ٣٥٦-٣٥٧.
- (١٨) القرطبي: المصدر نفسه، ص ٣٥٦.
- (١٩) الحصري القيرواني: زهر الآداب ج ١ ص ٧٥. وقيل: إن عبد الله بن عمر هو الذي قال: من أراد أن يكون شهيدا فليتزوج عاتكة بنت زيد، انظر الحماسة البصرية، ص ٢٠٤.
- (٢٠) الأصبهاني: المصدر السابق، مج ١٨، ص ١١-١٢. انظر الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج ١، ص ٢٠٤. والحموي: معجم البلدان مج ٢، ص ٤٤٥.
- (٢١) الأعلام، مج ٣، ص ٢٤٢.
- (٢٢) الأصبهاني: المصدر السابق ص ١١-١٢. وانظر الحسن البصري: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٤. والحموي: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.